ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلة التاريخية الجزائرية

المجلد:05، العدد:02 (2021)، ص352-363

المدارس التعليمية وآثارها في المجتمع الإسلامي خلال القرنين (5 -7هـ/11-13م)

Educational schools and their effects in the islamic society During the two centuries (5-7 AH / 11-13 CE)

مروان بن شوش
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة (الجزائر)
benchouchemerouane@hotmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/05/27
تاريخ القبول:
2021/10/31

الكلمات المفتاحية:
- ✓ المدارس
- ✓ الحياة العلمية
- ✓ المشرق
- ✓ المغرب

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على المدارس التي أقيمت في حواضر بلاد المشرق خلال القرن الخامس والسابع الهجريين، بحيث تنافس السلاطين والأمراء والميسورون على العناية بهذه المؤسسات وذلك بجلب المدرسين، ووقف الأموال والأراضي لإنجاح دورها واستمراها في العطاء والبناء، ونذكر في الأخير بعض المدارس التي انتشرت في بلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري، وقد كان لهذه المدارس تأثيرات واضحة في الحياة العلمية، بل حتى في الجانب السياسي والاجتماعي، ومن هنا يأتي هذا المقال لإبراز دورها في الحياة السياسية والحضارية، ومدى أهميتها في خدمة المجتمع الإسلامي بصفة عامة وتكوين العلماء ورجال الدولة.

Article info

Received:
27/05/2021
Accepted:
31/10/2021

Key words:
- ✓ Schools
- ✓ scientific life
- ✓ the Orient
- ✓ Maghreb

Abstract:

This article aims to shed light on the schools that were established in the metropolitan areas of the Orient during the fifth and seventh centuries AH, so that the sultans, princes, and wealthy people competed to take care of these institutions by bringing teachers and endowing funds and land for the success of their role and their continuity in giving and building, and we mention in the last some of the schools that spread in The Maghreb during the seventh century AH, and these schools had clear effects in the scientific life, even in the political and social aspect. Hence, this article comes to highlight their role in political and civilized life, and the extent of their importance in serving the Islamic community in general and the formation of scholars and statesmen.

مقدمة

شهدت بلاد المشرق الإسلامي في مستهل القرن الخامس الهجري ظاهرة تأسيس المدارس التعليمية التي عُرفت بالنظاميات في عهد الوزير السلجوقي نظام الملك، كما واصل الأمراء بعد هذا العصر في تأسيس المدارس في فترة كان العالم الإسلامي يعاني من تداعي خطر الغزو الصليبي والتمزق الداخلي، ولكن هذا لم يثن من عزيمة المسلمين في الاهتمام بالعلم والعلماء، ولم تكن بلاد المغرب الإسلامي بمنأى عن ذلك النشاط العلمي، ولكن الشيء الملاحظ أن المدارس في الفترة المدروسة لم تكن منتشرة بشكل كبير مقارنة مع المشرق. ومن هذا المنطلق نطرح التساؤلات التالية: **ما هي أشهر المدارس التي ظهرت في القرنين الخامس والسابع الهجريين ببلاد المشرق والمغرب؟ وماهي أهدافها وآثارها؟**

1. مفهوم المدرسة

قال ابن منظور درس: درَسَ الشيء والرَّسمُ يَدرُس دُرُوسا. ودَرَس الأثر يَدْرُسُ دُروساً ودَرَسَته الريحُ تَدرُسُه دَرْسا أَي محَته؛ وَمِنْ ذَلِكَ دَرَسْتُ الثوبَ أَدرُسُه دَرْسا، فَهُوَ مَدرُوس ودَرِيس. والمِدراسُ والمِدْرَسُ: المَوضِعُ الَّذِي يُدرَسُ فِيهِ. والمِدرَسُ: الكتابُ. والمِدراسُ: البَيتُ الَّذِي يُدرَسُ فِيهِ القُرآنُ، [1] ولفظ المدرسة من الألفاظ المولدة عند العرب إذ أخذت من العبرانية أو الأرمينية مدراس أو مدرس وجمعها مداريس، ثم خففت فأصبحت مدارسة، ولهذا فالمدرسة من منشآت الحضارة الإسلامية الجديدة. هذا من حيث المدلول اللغوي. وأما في الاصطلاح فهي تلك الدور المنظمة التي يتوجه إليها طلبة العلم، وتوفر لهم كل المستلزمات وما يحتاجونه لتحصيل العلم، هذا كما يتولى التدريس فيها نخبة من العلماء المتميزين بالصلاح، ويكون اختيارهم حسب شروط الواقف ويجازون بما تعلموا من صنوف المعرفة. ويمكن القول إن المدرسة بنيان خيري تتميز الدراسة فيها عن الكُتاب والمساجد بالتعليم العالي، وتكون المدرسة مخصصة للتدريس والتعليم فقط. والمدرسة أسست لنشر نوع خاص من المعرفة تحت اشراف الدولة [2].

2. أسباب تأسيس المدارس

منها الأسباب الدينية فمن المعلوم أن التعليم عند المسلمين كان يرتكز أساسا على العلم الديني الذي أشار إليه الكثير من رجال السلف فطلبه عبادة، كما دخلت في اطاره العلوم اللغوية، واعتبرت من العلوم الواجب تعلمها في الشريعة، وتميز المنهج القرآني بأنه يربط العلوم جميعها بالمبادئ العليا الإسلامية في العقائد والأخلاق والاجتماع والاقتصاد والتشريع [3].

ومن الأسباب السياسية فقد تحكمت الظروف السياسية التي مرت بها بلاد المشرق الإسلامي في نشأة المدارس، فنجد أن الفاطميين أو العبيديين والسلاجقة والزنكيين والأيوبيين قد أسسوا مركزا للتعليم ونشر الثقافة الإسلامية، كما جعلوا التربية وسيلة للرد على الخصم، وأدركوا أن القوة والعنف لا تجدي نفعا بل لابد من مواجه الفكرة بالفكرة والحجة القوية، ولهذا كانت المدارس قد خدمت السياسة.

أما الأسباب العلمية كان تأسيس المدارس من قبل الأمراء والوزراء الرغبة الشديدة في نشر العلم.

وهناك الأسباب الشخصية وهي تكمن أساسا في إمداد الدولة بالعاملين في الجهاز الإداري وهذا لما اتسعت الدولة الإسلامية، ونمت صارت في حاجة ماسة إلى إعداد متخرجين لإدارة مؤسساتها لاسيما تلك المناصب المرتبطة بالعلوم الأساسية التي تقدم في المدارس كوظائف الإفتاء والقضاء والخطابة وغيرها من الوظائف، فكان السلاطين يختارون موظفي حكومتهم من المتخرجين من هذه المدارس من يكون ملتزما بالعقيدة السنية ومواليا للدولة [4]. ومن الشواهد التاريخية على ذلك ما ذكره الفقيه أبو اسحاق الشيرازي المدرس في نظامية بغداد حيث قال: "**خرجت إلى خُرَاسان فما دخلت بلدة ولا قرية إلَّا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابِي**" [5]. هذا يدل أن الدولة كانت تبذل قصارى جهدها لتخريج موظفين موالين لها ويكون لهم توجه مذهبي منسجم مع المجتمع الإسلامي.

3. نشأة المدارس ودورها في خدمة المجتمع

كانت أول مدرسة في تاريخ الإسلام هي تلك المدرسة التي كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم في مكة؛ حيث ربى فيها رسول الله ﷺ أصحابه، فكان المعلم الأول الذي أرسله الله إلى البشرية ليعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها، ويخرجها من براثن الجهل الذي كان سائدا قبل البعثة النبوية. وكان التعليم يتم في المسجد بحيث كان مسجده ﷺ جامعة المسلمين الكبرى ومركز الدعوة إلى الله إذ فيه يتعبد الناس، ويبلغ الرسول ﷺ عن الله، وينزل التشريع منظما للمجتمع الجديد، ويقابل السفراء والوفود، وتخرج الجيوش حاملة لواء الدعوة الإسلامية إلى الأمصار [6].

وقبل ظهور المدارس كان طالب العلم يسعى إليه بالسفر والارتحال في طلبه على يد الشيخ الذي يريده، فيبذل الجهد والمال في طلب المشهورين أو المرموقين من الشيوخ. وكانت المساجد أماكنا للدرس والتدريس للشيوخ والعلماء يفد إليهم الطلاب من كل صوب وحدب. وفي أواخر القرن الرابع وبداية الخامس الهجري بدأ ظهور المدارس، وتنافس الملوك والأمراء في تأسيسها تمكينا لنفوذهم أو خدمة لدينهم ونشرا للعلم بين شعوبهم، فكانوا يجمعون العلماء في هذه المدارس، وأصبح طالب العلم لا ينتقل إلى العلم فقد انتقل إليه العلم وصار لا يبحث عن شيخه فقد جاء الشيخ إليه [7].

وقد اطلعنا تاج الدين السبكي في هذا السياق حيث قال: "...**كانت المدرسَة البيهقية بنيسابور قبل أن يُولد نظام الملك والمدرسة السعدية بنيسابور أَيضا بناها الأمِير نصر بن سبكتكين أخو السُّلطان محمُود لما كان واليا بنيسابور ومدرسة ثالِثة بنيسابور بناها أبو سعد إِسماعِيل بن عَليّ بن الْمثنى الإستراباذي الوَاعِظ الصُّوفِي شيخ الخطِيب ومدرسة رابِعَة بنيسابور أيضا**" [8].

فعلى ضوء ما ماذكره السبكي يتضح جليا أن نظام الملك لم يكن أول من أنشأ المدارس، بل وجدت قبله ولكن ما يمكن قوله أن المدارس التي انشئت في مستهل القرن الخامس الهجري كانت تابعة للدولة ومتميزة بنظمها، ويمكن تقسيم المدارس إلى قسمين قسم أقيم في العاصمة بغداد والحواضر الأخرى، فقد ركزت هذه

الأخيرة على تلقي النابهين لتكوينهم واعدادهم ليكون منهم المشيخات التربوية والقيادات السياسية. وأما القسم الثاني اختصت بتربية العامة، وترسيخ مبادئ وقيم المجتمع الإسلامي [9]. ومن هذه المدارس نذكر على سبيل المثال المدرسة النظامية ببغداد التي تُعد من المعاهد الأولى للدراسات العليا في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي، التي امتد وجودها خمسة قرون تقريبا.

ولعل إطلاق اسم النظامية على هذه المجموعة من المدارس المؤسسة في عصر السلاجقة، ومنها نظامية بغداد إنما كان بعد القرن الخامس للهجرة حينما بدأ المؤرخون في الكتابة عن هذه المدارس للتمييز بينها وبين غيرها من المدارس التي انتشرت يومئذ في معظم الولايات. وهي تقع على شاطئ دجلة في وسط سوق الثلاثاء، وقد وصفها الألوسي بأنها مستطيلة البناء متناسقة الزوايا والأرجاء، فيها محل واسع للدروس وآخر للمذاكرة، وللترويح على النفوس، ومصلاها يسع من المصلين الألوف، وفيها مواضع لرؤساء العلم، وأدوات الطباعين، وكانت تشتمل على طبقتين من البناء وفيها من الحجر والبيوت عدد كثير مرفوعة الجدران، مشيدة الأركان، عقد في جوانبها طاقات مستديرة الشكل تنتهي إلى ذلك البنيان المشيد. وكان افتتاحها في يوم السبت 18ذي القعدة سنة (459ه/1067م)، حيث شهدت بغداد يوم ذاك تكريم العلماء بمناسبة افتتاح المدرسة، وأقيم حفل حضره كبار رجال الدولة والعلماء والوجهاء وسكان المدينة حتى امتلئ فيناء المدرسة والمحلات المجاورة [10].

وقد تطرق ابن الجوزي (ت.597ه/1200م) للوقف في المدرسة النظامية والفئات المستحقة له من المنتسبين إلى المدرسة بقوله: "**هذه المدرسة والوقف عليها، وفي كتاب شرطها أنها وقف على أصحاب الشافعي أصلا وفرعا، وكذلك شرط في المدرس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها ومتولي الكتب، وشرط أن يكون فيها مقرئ يقرأ القرآن، ونحوي يدرس العربية، وفرض لكل قسطا من الوقف**" [11]. وهذا في الحقيقة مظهر سلبي؛ لأنه كان عاملا مغذيا للتعصب المذهبي بحيث كان هناك تفضيل مذهب عن الآخر.

كما أقام نظام الملك مدرسة للإمام الجويني (ت.478ه/1085م) بنيسابور على غرار نظامية بغداد. ولم تذكر المصادر التاريخية تاريخ إنشائها، ولكن إذا رجعنا إلى القول المتفق عليه بأن الإمام الجويني بقي فيها مدرسا مدة ثلاثين سنة تقريبا وأنه توفي سنة (478ه/1085م)، فيكون تاريخ افتتاحها ما بين 448ه – 449ه / 1056م – 1057م [12].

فكانت هذه المدرسة مخصصة لتدريس العلوم الشرعية على المذهب الحنفي، وقد درس فيها نخبة من العلماء المشهورين منهم: بهاء الدين العقاد الذي درس فيها إلى أن توفي سنة 569ه/1173م، وبرهان الدين مسعود إلى أن توفي في سنة 599ه /1202م، وجمال الدين محمود بن أحمد الحصري الذي ظل بها إلى توفي في 636ه/1238م [13].

والمتمعن لجهود نور الدين محمود يدرك حقيقة أن خطواته في إنشاء المؤسسات العلمية كانت هادفة، وهذا ما أفصح عنه مجد الدين بن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلا: "**نحن ما أردنا بناء المدارس إلا**

لنشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين..."، ثم يصفه أبو شامة المقدسي (ت.665هـ/1266م) قائلا: "**وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم، وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام وتأسيس قاعدة الدين...من بناء الربط والمدارس والمساجد، حتى إن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله وفي زمانه صارت مقرا للعلماء...**" [14].

وقد انتشرت هذه المؤسسات في مختلف حواضر بلاد المشرق، فنجد مثلا في مكة مدرسة بن الأرسوفي، وهي من مدارس القرن السادس الهجري [15]. وبعد ذكرنا لهذه النماذج لنا أن نتساءل **كيف كان تأثير هذه المدارس في خدمة الفرد المجتمع؟**

في الحقيقة أن هذه المدارس التي أسسها الملوك والسلاطين كانت عاملا في ازهار الحياة العلمية في عدة حواضر، وقد تكوّن فيها عدد كبير من العلماء، قُدر لبعضهم أن يكون من بين مشاهير العلماء الذين تخصصوا في فرع من فروع المعرفة، وساهموا بمؤلفاتهم في النهضة العلمية بالمشرق الإسلامي، ثم عمت لتشمل مختلف أرجاء العالم الإسلامي منهم على سبيل المثال:العماد الأصفهاني (ت.597هـ/1200م) وهو مؤرخ، وأديب ولد في أصبهان وقدم بغداد، فتأدب وتفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الزاز مدرس النظامية، وسمع بها الحديث من أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام وغيره .

عُرف بمصنفاته المتنوعة، منها: خريدة القصر، والفتح القُسى في الفتح القدسي، فقد أرخ فيه لفتوحات صلاح الدين الأيوبي، والبرق الشامي في أخبار صلاح الدين وفتوحه، وديوان رسائل وديوان شعر والسيل على الذيل في تاريخ بغداد، جعله ذيلا على ذيل ابن السمعاني، ونصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية، اختصره الفتح بن علي البنداري في جزء سماه زبدة النصرة ونخبة العصرة [16].

وابن عساكر الدمشقي (499هـ – 572هـ / 1098م – 1176م) الذي عُرفت أسرته باهتمامها بالعلم والحديث والفقه الشافعي في دمشق، بدأ يطلب العلم وهو في السادسة وظل يطلبه في حياته كلها بدمشق، ثم في بغداد ومكة وغيرها من الحواضر ثم عاد إلى دمشق سنة 533هـ /1138م وقصده طلبة العلم، من مصنفاته: تاريخ دمشق جاء في النهاية في ثمانين مجلدا تبلغ حوالي 16 ألف صفة حتى حوالي سنة 595هـ/1198م، وكان منهجه في الكتابة منهج المحدثين في ذكر السند ثم ذكر الخبر، وتاريخ ابن عساكر يُعد مصدرا مهما في التاريخ الإسلامي [17].

كما درس في نظامية بغداد عند أبي حامد الغزالي أبو الفتح عبد الكريم الشهرستاني مصنف كتاب "**الملل والنحل**"، و"**العيون والأنهار**" وتفقه عليه أيضا أبو اسحاق الغنوي وأبو طالب الرازي، وأبو سعيد النسابوري صاحب كتاب "**المحيط في شرح الوسيط**"، و"**الإنصاف في مسائل الخلاف**" وغيره [18].

وكانت هذه المدارس تستقبل الأساتذة الزائرين، فتعهد إليهم بإلقاء الدروس فقد زار نظامية نيسابور المحدث أبو الفضل محمد بن أحمد (ت.482هـ/1089م) [19]. وبلغت المدرسة النظامية بأصفهان شهرة كبيرة؛ بحيث أخذ طلاب العلم يشدون الرحال إليها بعد وفاة أبي اسحاق الشيرازي عميد نظامية بغداد وهذا للتفقه على

أستاذه الخجندي، فوفد عليها أحمد بن سلام بن مخلد، وأحمد بن محمد الأرجاني الذي قضى عنفوان عمره في المدرسة حتى توفي في 544ه/1149م وله ديوان مطبوع [20].

واشتهر من أمراء صلاح الدين العالم الوافد من خارج مصر، الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري (ت.586ه/1191م) الذي تفقه في المدرسة النظامية بجزيرة ابن عمر، وهي من المدارس التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك، وكان الهكاري إماما لأسد الدين شيركوه، ومن قدماء عساكره، كما أنه ساهم مع بهاء الدين قراقوش (ت.597ه/ 1200م) حتى تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد، وكان رفيقه في الحرب مع الصليبيين [21].

لقد شارك في النهضة العلمية المصريون الذين درسوا في المدارس النظامية مثل عبد السلام بن علي بن منصور الدمياطي المعروف بابن الخراط (ت.609ه/1212م) الذي تفقه في نظامية بغداد، ثم عاد إلى مصر وعُين في القضاء والتدريس، كما أن أبا إسحاق إبراهيم بن منصور الفقيه المصري (ت.596ه /1199م) قد أخذ العلم في بغداد، وعاد إلى مصر وعمل بها [22].

والجدير بالملاحظة أن مناصب التدريس في المؤسسات العلمية التي أنشأها صلاح الدين لنشر المذهب السني أُسندت إلى العلماء الوافدين من خارج مصر. ووظيفة التدريس كانت تُعد من الوظائف الرسمية التي اهتم بها الأيوبيون لكونها وسيلة لتثبت المذهب السني في مصر. فمن الشواهد التاريخية على ذلك نجد أن وظيفة التدريس بمدرسة منازل العز أسندت للعالم شهاب الدين الطوسي (ت.596ه /1199م) وكان من علماء نظامية بغداد [23].

ومن الأسباب التي جعلت طلبة العلم يتوجهون إلى هذه المدارس أنها كانت تشتهر بأساتذتها، وما كانت توفره لطلبة العلم من خدمات وما يحتاجونه ليتفرغوا للتحصيل العلمي مثل المكتبات التي ألحقت بها فقد كانت عامرة بنوادر المصنفات والمخطوطات، وقد نمت تلك المكتبات لاسيما مكتبة نظامية بغداد، ومكتبة نظامية نيسابور وأصفهان وغيرها، ومن الشواهد التاريخية التي تبين مدى أثرها في النشاط العلمي ما أفادنا به ياقوت الحموي لما زار احدى المكتبات في 613-614م ووصف خزائنها العشر ومنها الخزانة النظامية، فاستفاد من ذخائرها في تصنيف كتابه معجم البلدان[24]. هذا ما يبين بأنها كانت ثرية بالكتب والمصنفات مما جعلها وجهة لطلبة العلم.

كان انتشار المدارس عاملا مهما في كثرة المناظرات العلمية، ذلك لأن الأمراء والوزراء كانوا يختارون بعض المدرسين الذين اشتهروا بقدرتهم على المناظرة إذ أن نظام الملك السلجوقي لما أعجب بتفوق الغزالي على مناظريه عهد إليه بالتدريس في المدرسة، وأصبحت المناظرات العلمية من المواد المقررة في المدارس النظامية، كما عين نظام الملك بنظامية نيسابور الإمام الجويني للخطابة والوعظ والمناظرة، وكانت موضوعات المناظرات متعددة في النحو والصرف واللغة، ولكن أكثر ما كان منها يؤدي إلى الفتن هي المناظرات في

المسائل الفقهية. واتخذت المناظرات العلمية وسيلة للرد على الباطنية والفرق المنحرفة، حيث استدعى الإمام الغزالي ليناظر زعيم الشيعة الحسن بن الصباح [25].

ومهما يكن من أمر فقد أضحت تلك المدارس معاهدا للبحث العلمي النظري، ومركزا للباحثين الوافدين من مختلف أقطار العالم الإسلامي هذا، كما ظهرت ثمار هذه الجهود في المؤلفات العلمية في مختلف العلوم باللغتين الفارسية والعربية. ونشير في الأخير أن هذه المدارس اختصت بتدريس العلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها، ولكن ظهرت فيما بعد مدارس اختصت بالعلوم الطبية مثل المدرسة الدخوارية بدمشق [26]. وبالإضافة إلى ذلك كان لهذه المدارس دور سياسي تجلى واضحا في اعداد جيل يكون قادرا على مواجهة تحديات الغرب الصليبي في البلاد الشامية، فيومئذ كانت مدرسة عبد القادر الجيلاني التي أسست في بغداد تستقبل النازحين الذين فروا من الخطر الصليبي المحدق لتقوم بإعدادهم وتكوينهم، ثم اعادتهم إلى مناطق المواجهة تحت القيادة الزنكية فمن هؤلاء على سبيل المثال نذكر: ابن نجية (ت.599هـ /1202م) الواعظ الذي كان مستشارا لصلاح الدين السياسي والعسكري، والحافظ الرهاوي (ت612هـ /1215م) وموفق الدين المقدسي (ت.626هـ /1228م) [27].

ونجد أن تلك المدارس وُجهت لخدمة الدولة والسلطة الحاكمة ومصالحها، وفُرض فيها نوع خاص من المعرفة لإصلاح الفرد وإعداده لقبول سلطة الدولة وقوانينها، وبعد ذلك يتم تعيين المتخرجين من تلك المؤسسات في الوظائف الرسمية، كالقضاء، وأئمة المساجد، ووكلاء بيت المال، ومدرسين، وغير ذلك من الوظائف [28].

وكان لبعض المدرسين في تلك المؤسسات دور في إصلاح المجتمع والنهي عن المنكر، ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت.660هـ /1262م) طلع مرة على السلطان الأيوبي في يوم عيد وهو بالقلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، وهو في أبهة، فأخذ الأمراء يقبلون الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه يا أيوب، ما حجتك عند الله أما أبوئ لك ملك مصر ثم تبيع الخمور؟ فقال هل جرى هذا؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، فقال السلطان يا سيدي هذا أنا ما عملت هذا من زمان أبي، فقال أنت من الذين يقولون ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ (سورة المؤمنون، الآية: 63)، فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة، كما كان لهذه المدارس دور في العناية بالفرد من الناحية الاجتماعية لما توفره له من خدمات [29].

وتمثل دورها في الجانب السياسي أيضا في جهود بعض المدرسين كأبي الحسن بن شيخ الشيوخ (ت.617هـ /1220م) مدرس في المدرسة الناصرية الثانية وفي الوقت نفسه كان رسولاً للملك الكامل في رسائل متعددة إلى حلب وبغداد وغيرها من البلاد، كما بعثه الكامل رسولا يستنجد بالخليفة وجيشه على الفرنج فأدركه الموت بالموصل [30]. ونجم الدين عبد الله بن شاس (ت. 616هـ /1219م) مدرس المدرسة القمحية،

كان قد ترك التدريس وتوجه إلى ثغر دمياط بنية الجهاد عندما استولى الصليبيون عليه في سنة (615ه/1218م) وهي ما تُسمى بالحملة الصليبية الخامسة، واستمر الشيخ بن شاس في جهاده إلى أن توفي سنة 616ه/1219م [31].

وانتشرت هذه المؤسسات التعليمية في بلاد المغرب، فقد ظهرت في مستهل القرن السابع الهجري بحيث أسست أول مدرسة سنة 635ه /1237م وفي مدينة طرابلس ما بين655-658ه /1257-1260م إبان عهد بني حفص، وأسست مدرسة في مراكش سنة658ه/1260م وغيرها، كما شيدت مدرسة في عهد السلطان أبي الحسن المريني (731-749ه) وهي مدرسة الحلفائيين (الصفاريين) بفاس وذلك في حدود 670ه /1271م، ثم أتبعها بمدارس عدة في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى والأدنى، وما يلاحظ أن المدارس في بلاد المشرق الإسلامي إذا كانت قد وجدت من أجل نصرة المذهب السني الشافعي، فإن المدارس بتلمسان والمغرب بصفة عامة كانت تهدف إلى نصر المذهب المالكي والتصدي لمذهب دولة الموحدين.

ولهذا نجد أن المدارس في بلاد المغرب اتسمت بتبعيتها للسلطة الحاكمة، وشيدت لتكون أداة للسلطة وتكوين العلماء المتخصصين في المذهب المالكي وخدمة المجتمع المغربي وهذا ما تجلى واضحا في تعليم سكان المنطقة، ونشر العلوم الشرعية وغيرها من العلوم. وكذلك نجد أن هذه المدارس قد خصصت لها السلطة الحاكمة رواتب وأجور للمدرسين وكل العاملين فيها وهذا لضمان استمرار نشاطها، كما تكفلت بإعانة الطلبة وتوفير ما يحتاجونه من نفقات، وأنشئت بها مكتبات لتمكين الطالب من توسيع معارفه، وتزويده بما يحتاجه من مادة علمية [32].

خاتمة

من خلال دراستنا لبعض النماذج من المدارس التي أسست خلال القرن الخامس والسابع الهجريين تبين أنها انتشرت في المشرق ثم في المغرب، ونستخلص أنها كانت عاملا في توثيق الصلات العلمية بين أقطار العالم الإسلامي، وكثرة الرحلات العلمية وتبادل الخبرات مما أدى إلى ازدهار الحياة العلمية في عدة حواضر. واضطلعت هذه المؤسسات بنشر الثقافة الإسلامية، وتحصين المجتمع من الأفكار الوافدة، وتخرج منها الكثير من العلماء الذين كان لهم دور بارز في النشاط العلمي في العالم الإسلامي بمشرقه ومغربه.

وبالإضافة إلى ذلك نستخلص أن هذه المؤسسات وفرت كل ما يحتاجه طالب العلم، وكان الوقف والتنافس على الخير ابتغاء مرضاة الله عاملا في استمرار عطائها ودورها الحضاري، ولهذا شجعت طلبة العلم، واستقطبتهم من مختلف الحواضر، وكانت سببا في شهرة بعض العلماء، واستقرارهم، ونبوغهم ولهذا يمكن القول إنها أضفت إلى نهضة علمية في حواضر المشرق والمغرب في فترة كان العالم الإسلامي يعاني من تحديات خارجية وداخلية مما يجعلها تُعد من التجارب الرائدة في التاريخ الإسلامي.

الهوامش:

1- محمد بن منظور، **لسان العرب**، دار صادر ، بيروت، 1414هـ، ص79-80.

2- محمد منير سعد الدين، **المدارس الاسلامية في العصور الوسطى**، المحمتبة العصرية، بيروت، 1995، ص ص 11-12.

3 - المرجع نفسه، ص 15.

4 - المرجع نفسه، 16-17.

5 - تاج الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محد الطناجي وغيره، ط.2، دار هاجر للطابعة والنشر، 1413هـ،ج.4، ص 216.

6 -عباس محجوب، **التربية في عصور ما قبل الإسلام وبعده**، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، رجب - ذو الحجة 1400هـ/1980، ص111.

7 - محمد منير مرسي، **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**. عالم الكتب، 2005م، ص291.

8 - تاج الدين السبكي، المصدر السابق،ج.4، ص 314.

9 - ماجد عرسان الكيلاني ماجد عرسان، **هكذا ظهر صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، ط.2، دار القلم الامارت العربية دبي،2002، ص 177.

10 -السيد محمود شكري الألوسي، **تاريخ مساجد بغداد وآثارها**. بغداد: مطبعة دار السلام.1446هـ، ص 120-103، عبد الهادي محمد رضا، نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (408هـ - 485هـ)، **كبير الوزراء في الأمة الإسلامية، دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استزاره**. الدار المصرية اللبنانية، 1999، ص 369 وما بعدها؛ عز الدين ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت - لبنان: دار الكتاب العربي 1997م، ج.8، ص.212.

11- جمال الدين ابن الجوزي، المنتظم **في تاريخ الأمم والملوك**. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م، ج.16، ص 304.

12 - محبوبة عبد الهادي محمد رضا، **نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (408هـ - 485هـ)، كبير الوزراء في الأمة الإسلامية، دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استزاره**، الدار المصرية اللبنانية، 1999م، ص. 379؛ جمال الدين ابن الجوزي، نفسه، ج.16، ص. 245.

13 - أحمد شلبي، **تاريخ التربية الإسلامية**. دار الكشاف شر والطباعة والتوزيع، 1954، ص ص. 113-114.

14 - أبو القاسم شهاب الدين، أبو شامة، **عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ط.1، بيروت: مؤسسة الرسالة 1997م،ج.1، ص ص.61، 62.

15 - الدهاس فواز علي بن جنيدب، **المدارس في مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي** ط1، مصر: دار القاهرة، 2006م، ص.25.

16 - خير الدين الزركلي، **الأعلام**، بيروت: دار العلم للملايين، 2002م، ج.7، ص ص.26-27؛ أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**؛ تحقيق: إحسان عباس، لبنان: دار صادر، 1900، ج.5، ص. 184، مصطفى شاكر، **التاريخ العربي والمؤرخون**، بيروت: دار العلم للملايين،1987، ج.2، ص ص.246-247.

17 - مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج2، ص ص 240-241.

18 - محبوبة عبد الهادي محمد رضا، المرجع السابق، ص ص. 377-378.

19 - المرجع نفسه، ص.381.

20 - المرجع نفسه، ص. 383-384.

21 - بهجت منى محمد بدر، **أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية**، ط.1 القاهرة، 2002، ص. 62.

22 – جلال الدين السيوطي، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار إحياء الكتب العربية، 1967م، ج.1، ص. 410؛ عبد الحي بن أحمد ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. دمشق – بيروت: دار ابن كثير، د.ت.ط.ج.6، ص. 529.

23– بهجت منى محمد بدر، المرجع السابق، ص. 64.

24– محبوبة عبد الهادي محمد رضا، المرجع السابق، ص ص.393–394.

25 – بهجت منى محمد بدر، المرجع السابق، ص.135،136؛ أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، المصدر السابق،ج.3،ص. 168.

26 – محبوبة عبد الهادي محمد رضا، المرجع السابق، ص.401؛ عبد القادر النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**. تحقيق: إبراهيم شمس الدين، لبنان: دار الكتب العلمية، 1990م، ج.2، ص. 100.

27– الكيلاني، المرجع السابق، ص. 189؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، القاهرة: دار الحديث، 2006 م، ج.15، ص.472، ج.16، ص ص .153،149،96.

28 –حسين الشميساني، **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**، ط. 1، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983،ص. 268

29– السبكي،المصدر السابق،ج.8، ص.211–212، أمين حسين، **بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية**، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 2000 ، ص.111، خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج.4،ص.21.

30 –أبو محمد عيف اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه: خليل منصور، ط.1، لبنان: دار الكتب العلمية، بيروت1997م، ج.4، ص. 32؛ جلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ج.1، ص.409.

31 – أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، المصدر السابق، ج.3، ص. 61؛ سلام أيمن شاهين، **المدارس الإسلامية في مصر في لعصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني**، أطروحة دكتوراه، جامعة طنطا،1420ه/1999م، ص. 192.

32 – عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، الجزائر: موفم للنشر، 2002،ج.1، ص ص .325–326؛ **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحرة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2007م ص.140، محمد ابن مرزوق ، **المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،1981، ص.405.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

–عز الدين ابن الأثير عز الدين، **الكامل في التاريخ**. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت – لبنان: دار الكتاب العربي 1417ه / 1997م.

–ابن الجوزي جمال الدين، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**. تحقيق :محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت. 1992م.

–ابن خلكان أبو العباس شمس الدين، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق:إحسان عباس دار صادر – بيروت. 1900.

–الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، **سير أعلام النبلاء دار الحديث**– القاهرة1427ه/2006م.

-السبكي تاج الدين، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق:محمود محد الطناجي وغيره،ط.2/دار هاجر للطابعة والنشر 1413هـ.

-السيوطي جلال الدين، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاؤه – مصر.1967م.

-ابن العماد عبد الحي بن أحمد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. دمشق – بيروت: دار ابن كثير، د.ت.ط.

-أبوشامة أبو القاسم شهاب الدين، **عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ط.1، بيروت: مؤسسة الرسالة 1997م.

- ابن مرزوق محمد،**المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق، د.ماريا خيسوس بيغيرا، وتقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1981.

-ابن منظور محمد، **لسان العرب**، دار صادر ، بيروت 1414هـ.

-النعيمي عبد القادر، **الدارس في تاريخ المدارس**. تحقيق:إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية. 1990م.

-اليافعي أبو محمد عيف، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه: خليل منصور، ط.- بيروت1997 م.

المراجع

-الألوسي السيد محمود شكري، **تاريخ مساجد بغداد وآثارها**. بغداد: مطبعة دار السلام.1446هـ.

-بهجت، منى محمد بدر. **أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الاسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية**، ط.1 القاهرة، 2002.

- **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحرة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007م.

-ابن جنيدب الدهاس فواز علي، **المدارس في مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي**، ط.1.مصر: دار القاهرة 2006م.

-حسين أمين، **بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية**، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية2000.

-الزركلي خير الدين، **الأعلام**. دار العلم للملايين، 2002 م.

-سعدالدين محمد منير، **المدارس الاسلامية في العصور الوسطى**، المحمتبة العصرية، بيروت،1995.

-شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، دار العلم للملايين، بيروت، 1987.

-شلبي أحمد شلبي، **تاريخ التربية الاسلامية**. دار الكشاف شر والطباعة والتوزيع، 1954.

-الشميساني حسين، **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**، ط. 1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.

-فيلالي عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر، الجزائر، 2002.

-الكيلاني ماجد عرسان، ماجد عرسان، **هكذا ظهر صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، ط.2، دار القلم الامارت العربية دبي، 2002.

-محبوبة عبد الهادي محمد رضا، **نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (408ه – 485ه)، كبير الوزراء في الأمة الإسلامية، دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استزاره.** الدار المصرية اللبنانية، 1999م.

-مرسي محمد منير، **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، عالم الكتب، 2005م.

الرسائل الجامعية

-شاهين سلام أيمن، **المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني**، أطروحة دكتوراه، جامعة طنطا، 1420ه/1999م.